رحلة الكتاب العربي في الإستشراق الفرنسي

خليل الهنداوي

بينا كان الكتاب العربي ، في خزائن الشرق ، حبيساً مطموراً ، كان يتنفس ريح الحياة ، ويتمتع بأنفاس الحرية في ربوع الغرب ، على أيدي المستشرقين .

ولا ريب ، أن هؤلاء المستشرقين كانوا على أهواء مختلفة ، منهم من استهاله الشرق وحب معرفة الشرق ، فأكب على تعلم اللغات الشرقية ـ وبخاصة اللغة العربية ، لينفذ الى سحر الشرق . ومنهم من كانت غايته تبشيرية او استعمارية ، لكنهم على اختلاف اهوائهم ـ أسهموا في إحياء التراث العربي ، ومسحوا غبار الإهمال والنسيان عن كثير من آثاره ، وحسبهم فضلاً أن نعرف ان الكثير من الآثار العربيـة استعاد حياته في ديار الغرب ، قبل الشرق .

وقد اشتغـل بالاستشراق اكثر الدول الكبرى التي كانت لها مصالح حيوية تربطها بالشرق،منها انكلترا وفرنسا والمانياوروسيا.

وكان جل هؤلاء المستشرقين يتقنون العربية على الأوراق . أما ألسنتهم فكانت ثقيلة . وقد حضرت مرة محاضرة للمستشرق الفرنسي «لاووست » كان يقرؤها بالعربية ، وهي مخطوطة بالحروف اللاتينية .

ولعل نصيب الفرنسيين من هذا الاستشراق كان الحظ الأوفى ، بحكم الروابط السياسيـة والتجارية التي كانت تشد فرنسا بالشرق .

على أن تاريخ مراحل الدراسات العربية، في الغرب ، يبقى مبهماً ، والاتصال بالفكر العربي قد تم بوسائـل مختلفة ، إما بواسطة تجارة المدن الايطالية الساحلية مع الشرق ، وإما ـ بصورة خاصة ـ بواسطة تجاور الدول الاسلامية التي قامت في جزيرة«صقلية» والربوع الأندلسية .

وفي فرنسة نرى الميـل الى الاستشراق بدأ في عصر النهضة ، ويبدو ذلك في انشاء اول منبر للدراسات العربيـة في « كلية فرنسة » عام ١٥٨٧ م .

وفي القرن السابـع عشر كانت الأهواء السياسية توجه الدراسات العربية ، اذ نرى عملاء الملك في الشرق يعدون جمع الدراسات، بجمعهم المخطوطات العربيـة ، ووضعهم ملاحظاتهم الشخصية التي ساعدت على تأليف « هربلو » معجم المكتبة الشرقية الذي ظهرت طبعته الأولى سنة ١٦٩٧ م .

وفي سنة ١٧٨٧ م أمر لويس السادس عشر بتأليف جمعية من العلماء لنشر كنوز مخطوطات « مكتبة باريس الشرقية » .

ان قصص الف ليـلة وليلة التي جمعها « انطوان جالان » ظهرت طبعتهـا الأولى باثني عشر جزءاً ، ما بين سنة ١٧٠٤ م وسنة ١٧١٧ م ، وهي نتاج عملاء الملك في الشرق . وبنجاحهـا بدأت شهرة القصص الشرقية في القرق الثامن عشر .

وقد جاء في مقدمة التعريف بألف ليلة وليـلة ، « هي الشرق بعاداته وأخلاقـه وأديانه وشعوبه من الخاصة الى العامة . وهي الصورة الصادقة له ، ومن تسنى له أن

يقرأها فكأنه رحل الى الشرق ، فسمعه ورآه ولمسه لمس اليد » .

وسعى الأدباء في فرنسة الى محاكاتها ، مما جعل أثرها يظهر في الكثير من قصصهم ومسرحياتهم .

وفي سنة ١٧٣٢ ألف « جايني » اول كتاب عن حياة « محمد » تقيد فيه بالمصادر العربية ، دون تعليق او دراسة .

هذا هو العمل المتواضع الذي قام به رسل المكتبة الملكية التي فتحت الأفق الواسع للاستشراق الفرنسي في عصر غزو مصر ، وفي بدء القرن التاسع عشر في ظلال مدرسة اللغات الشرقية سنة ١٧٩٥ م التي رئسها المستشرق العظيم البارون « دي ساسي » .

وخلال ثلاثين عاماً ظل « دي ساسي » الموجه الأكبر للدراسات الاسلامية والعربية في اوروبا ، كما عمل تدريسه الذي ساد بين ١٨٢٠ م و ١٨٣٠ م على خلق المستشرقين الشبان الذين تألقوا في سماء اوروبا حتى سنة ١٨٦٠ م .

وأما المعلمون المتبحرون من الألمان فقد كانوا زملاء « دي ساسي » وفي فرنسة ذاتها ظلوا يتبعون منهجه .

وأثناء ذلك ، كان استيلاء فرنسة على الجزائر ، فاذا بمصالحها صبغت الدراسات العربية بغايات استعمارية ، غرق فيها الكثير من المستشرقين ، حيث كانت مشاغل الحياة المادية تفرض على هؤلاء المستشرقين أن يختاروا أحد أمرين : إما خدمة وزارة الخارجية بعد دراستهم اللغات العربية والفارسية والتركية في مدرسة اللغات الشرقية ، وإما الوظائف الإدارية في شمالي افريقية .

في الجانب الأول نلاحظ تنوعاً في المعارف تبعاً لانتباه كل عالم ونشاطه ، وفي الجانب الثاني نلاحظ ثقافة صلبة ، متينة ، وأحياناً ، ضيقة الآفاق بالتزامها الدراسات المغربية ، وأشياء خاصة بافريقية .

وفي منتهى القرن التاسع عشر ، كان لتجديد طرائق « درس اللغات والتاريخ وعلم الأديان » أثر بارز في تلقيح طرائق الاستشراق باتجاهات حديثة . فشمول التدريس العالي ووفرة البعثات العلمية — على نقصها — أعطت أهمية خاصة للدراسات الاسلامية المعاصرة ، ووحدة في المنهج ، وأفكاراً جديدة لم تكن معروفة قبل « دي ساسي » .

ان ملاحظة الحياة انما تتم بمعرفة الماضي الذي هو ، بدوره ، عرضة للبحث والتوضيح بواسطة دراسة الأعمال المعاصرة . ومهما كانت سطحية ، حتى الآن ، فان النهضة الفكرية في الشرق تترك أثرها ايضاً في علم

الاستشراق الحديث المتعلق بالدراسات الاسلامية .

ان « دي سامي » الذي عينه الملك واحداً من ثمانية أعضاء في جمعيـة « نشر كنوز المخطوطات الشرقيـة » في مكتبة باريس الوطنية، اتجه بميله الاطلاعي الواسع نحو كل ما يتصل بالآثار الاسلامية ، ولكنه وجد أن من الضرورة أن يبني ميله هذا على قاعدة صلبة من « فقه اللغة » ؛ فرجع الى الائمـة الاقدمين في المدرستين الكوفية والبصرية ، وصنف كتابه في النحو « التحفة السنية في علم العربية » في جزءين ، وتداولت الايدي هذا الكتاب زهاء عصر كامل؛ ولكن«النحو» الاكثر انتشاراً هو مـا وضعه بالفرنسية « الاب بيريه » .

وباستثناءالكتاب الذائع «كتاب سيبويه» الذي شرحه ونشره « ديرنبورغ » لا نرى مما يتصل بالنحو العربي الكلاسيكي الا بعض ترجمات لآثار مدرسية ، « كالاجروميـة ، وألفية ابن مالك » .

ويبقى ، هنالك، وحده كتاب «العروض» العربي الذي وضعه «غويار» سنة ١٨٧٥م ، وهو يعد الاثر الاول من نوعه ، الذي وضع علم العروض في منزله الاصلي، «الموسيقى».

وفي سنة ١٨٦٠ ألف « كاسيرسكي » معجماً عربياً فرنسياً جزيل الفائـدة ، ولا نرى في أية لغة ، معجماً مثله يستجيب الى غنى اللغة العربية وتنوعها .

ان مذهب « اللغويات الحديث قد تطرق الى مبحث اللهجات واللغات العامية ، وتلك آثار « وليم مارسي » في هذا المذهب تتلاقى — بما اتسمت به من منهجية دقيقة ، وبحث عميق واستكشاف بعيد ، وشمول يمتد الى اللغة والتاريخ والحياة الاجتماعية — مع آثار دي سامي .

وفي الحين الذي كانت فيه الكتب العربية المطبوعة قليلة ، اهتم « دي ساسي — مـع قراءته للمخطوطات — بأن يؤلف مجموعـة كلاسيكية مختارة : « Chresto mathie » يجذب بها القراء الى فنون الادب العربي المختلطة ، من شعر ونثر علمي وتاريخ وآثار محدثة ، وان في تعريبه وعرضه النصوص المجموعة خير شاهد على العمل الجدي ،وتنوع المعرفة عند هـذا المعلم الخبير بالدراسات العربية في أوروبا .

لم يكن —هنالك — الا بعض مطبوعات مدرسية ضئيلة؛ ولكن « دي ساسي »شارك المشارقة في تذوق النثر العلمي بأن جمع ، في طبعة لائقة « مقامات الحريري » مع مقدمة له باللغة العربية ، وتلاه « بار بيي » الذي أعطى آثاراً جذابة من أمثلة النثر العربي ، بينما « مارسي» لم يجمع الا شذوراً عن تاريخ النثر العربي ، ألقاها على طلابه .

ومن الأمانة أن نذكر بأن مجموعـة دي

ساسي الكلاسيكية التي تقيد بها من بعده ، طلاب في فرنسة وخارج فرنسة ، اعتمدت في شعر ماقبل الاسلام على مدارس الشرق .

ففي عالم اللغة والأدب :

أخرج « بوستل » ١٥٠٥/١٥٨١ م أول كتاب في قواعد اللغة العربية بالحرف العربي .

ودافع « دي لاجرانج » ١٧٩٠ — ١٨٩٥ م عن محاسن الشعر العربي بمقالاته وبحوثه المتعددة . وله فيه مجموعة « نخب الأزهار في منتخب الأشعار » .

ووضع « ديوميين » قواعد العربية الفصحى، ١٩٣٧ وهو من أجود كتب النحو .

وألف «كليمان هوارت» كتابه الذي لايزال يعد في المراجع ، في تاريخ الادب العربي .

وفي عالم الشعر :

جمع المستشرق « دي سلان » ١٨٣١ ديوان امرىء القيس متناً وترجمة وجمع المستشرق «بوشير» ديوان الفرزدق ١٨٧٠م. وجمع « ديرندبورغ » ديوان النابغة الذبياني. وجمع « ابن شنب » ديوان علقمة الفحل ، وعروة بن الورد ١٩٢٥م . وجمع «بيريس» ديوان كثير عزة في جزءين ووضع كتاباً في الشعر الأندلسي الفصيح في القرن الحادي عشر .

على أن ترجمة «دي ساسي» لكتاب الافادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي سنة ١٨١٠م فتحت أفقا جديداً على الجغرافيا . وهذا « سيديو » درس الجغرافيا الرياضية عند العرب ، و « رينو » درس تاريخ معارفهم الجغرافية، كما أن فصولا من كتاب «مسالك الابصار » لشهاب الدين العمري ، ترجمها المستشرقان « كازيمر وديوميين » كما ترجم سواهما رحلة ابن بطوطة ، وترجم «باربيي» نصوصاً من كتاب «ياقوت» المتصلة بالفرس، و « فران » أعد مجموعة غنية ترجمها عن الجغرافيين العرب ، ودرس تاريخ الجغرافيا العربية .

أما العلوم العربية — ولا سيما الطب — فقد ألف الدكتور « ليكسلير » تاريخ الطب العربي في جزءين سنة ١٨٧٦ م ، وفيه الكثير المقبوس عن « ابن ابي أصيبعة » .

والدكتور «رينو » درس دراسة منهجية الطب الاندلسي ، كما أن « كليمان موللي » ترجم لابن العوام كتاب « الفلاحة الاندلسية » في ثلاثة أجزاء .

و « لويس مارسي » جمع وترجم أثراً هاماً عن الخيل العربية .

كما أن « برتلو وهوداس » جمعا آثاراً في الكيمياء العربية ، وترجماها . ولهما كتاب « الكيمياء في العصر الوسيط »سنة ١٨٩٣ م .

وفي عالم التاريخ ،

زي « دي ساسي » في مجموعته المختارة بين الأهمية التاريخية لآثار المقريزي وابن

خلدون ، وتوالى على أثره الدارسون الأوروبيون يدرسون المؤرخين المسلمين دراسة وافية ، كانت مهمة في الشرق ، هذه الدراسة التي لم تحتل مكانها الحقيقي حتى الآن .

وهذا « كاترمير » نشر كتاب « سر الخليقة » و « منتخبات من أمثال الميداني » وكتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي ، وعنه اقتبس تاريخ المماليك ، بعد أن مهد له بمقدمة رائعة ، ونشره سنة ١٨٣٧ م في جزءين ، ونشر مقدمة ابن خلدون ، واللغة العربية وآدابها وجغرافيتها .

وهذا « فرينل » كان أول من عني بعرب الجاهلية تاريخياً وجغرافياً ، وكتابة ولهجات ، وفك رموز بعض النقوش السبئية ، وجلا تاريخ اليمن القديم . ١٧٩٥ ، ١٨٩٥ م .

وهذا « رينو » ١٧٩٥ م ١٨٦٧ م ، اقتبس الحروب الصليبية من تاريخ الكامل لابن الأثير .

كما استخلص « ديفرجه » سيرة النبي من تاريخ أبي الفداء ونشرها متناً وترجمة .

ووضع « دي برسفال » أجزل كتبه فائدة « باكورة تاريخ العرب » في ثلاثة مجلدات ، وتكررت طبعته ، وكان مالكاً العربية ، واسع الاطلاع على ماكتب فيها .

ونشر « دي سلان » كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، ونشر مقدمة ابن خلدون متناً وترجمة .

ونشرت فئة من المستشرقين كتاب « تقويم البلدان » لأبي الفداء .

أما « ديرنبورج » الابن فقد نشر مذكرات أسامة بن منقذ ، وكتابه « الاعتبار » كما نشر كتاب الفخري لابن الطقطقي ، والنكت العصرية لعمارة اليمني .

كما نشر « دي ميتار » كتاب « مروج الذهب » للمسعودي متناً وترجمة ، وكتاب « المسالك والممالك » لابن خردازبة متناً وترجمة ، كما أصدر ، بمعاونة « دي سلان » مجموعة عن مؤرخي الحروب الصليبية في ستة عشر مجلداً ، و « مختارات » من كتاب الروضتين لأبي شامة .

وهذا « بلوشي » ترجم كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » و « تاريخ حلب » لابن العديم .

و « ليفي بروفنال » نشر كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي ، ونسخة جديدة من أجزاء الذخيرة الثلاثة لابن بسام ، وكتاب « رايات المبرزين ، وشارات المميزين » لابن سعيد المغربي ، وتاريخ اسبانيا المسلمة . وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الاندلسي ، وكتاب « نسب قريش » لعبد الله بن مصعب بن الزبير .

وأما المستشرق «كانار» فقد اختص بدراسة الامير – سيف الدولة – عشرين سنة ، أسفرت عن مجموعة تاريخية وأدبية جامعة لاخبار الامير سيف الدولة الحمداني ، وتعد مرجعاً هاماً من مراجع الدراسة ، وألف تاريخ السلالة الحمدانية في سورية والجزيرة . وكتب عن المتنبي والحروب البيزنطية العربية .

وكتاب « مروج الذهب » للمسعودي نشره وترجمه « باربيي » في تسعة أجزاء ، كما ترجم « كارادي فو » كتاب « التنبيه » و « كلمات هوارت » ترجم وطبع كتاب « الخليقة » وتاريخ المقدسي .

كما أن أكاديمية الآداب اخرجت اثراً ضخماً عن « الحروب الصليبية » جمعته من المؤرخين العرب الذين ألفوا في هذا الموضوع ، « أمثال أبي الفداء وابن الاثير ، وبدر الدين العيني » في ثلاثة مجلدات سنة ١٨٧٢ م .

كما ترجم « دي سلان » الى الانجليزية روائع من مقدمة ابن خلدون في اربعة أجزاء ، كما اعطى « هنري ماتسي » جزءاً من فتوح مصر والمغرب « لابن عبد الحكم » والجزء الثاني من « اخبار مصر » لابن ميسر .

واما تاريخ العرب قبل الاسلام ، الذي وضعه « دي برسفال » فقد ظل أكثر من نصف قرن مرجعاً هاماً لا غنى عنه .

ويحسن بنا الاستشهاد ايضاً ببعض هذه الآثار التاريخية من «بلاد العرب» لديفيرجير.

أما فن الآثار الاسلامية القديمة ، فهو فن مستحدث اهتم به الدارسون منذ اهتم الفرنسيون بعمارة المشرق في القرن الثامن عشر ، ويعد « ماكس فون برشيم » السويسري الرائد الأول الذي فتح الطريق الجديدة لدراسة الآثار والخطط الاسلامية ، ثم انطلقوا على آثاره في فرنسة .

وفي المغرب ظلت « الحمراء » لزمن طويل الأثر المعماري الهام وحده ، ولكن منذ سنة ١٩٢٢ م أخذت عمارات المغرب تلفت أنظار الدارسين . ولم ينسوا أيضاً دراسة النقود الاسلامية .

فهذا « لافاله » وصف مدنية الاسلام في اسبانيا والقصور العربية ، و « لامار » المهندس والعالم بطبقات الأرض ، جلا لنا الاكتشافات الحديثة في الجزيرة العربية ، وبخاصة اليمن .

و « جورج مارسي » أعطى نموذجاً رائعاً للفن الاسلامي في الاندلس والمغرب .

وأما الدراسات الدينية ، فلم تحظ بالاهتمام الكافي في فرنسة ، على أن ترجمة القرآن – لكاسيرمسكي – على نقصها ، لم يغن عنها شيء .

و « صحيح البخاري » ترجمه «هوداس» على عجل ، في أربعة أجزاء .

وهناك عدة صحائف ترجمها « مارسي» الذي أعطى ترجمة رائعة لكتاب « تقريب

النووي » كما أن « بيليني » درس منه مايتعلق بكتاب « البيع » .

و « لوسياني » يعود له الفضل في نشر كتاب « توحيد الباري » لابن تومرت نثراً متقناً ، و « فاجنان » ترجم كتاب«المزاج» لأبي يوسف يعقوب .

وذلك « دي تاسي » صنف كتاباً في الدين الاسلامي ، وفق القرآن والتعاليم المذهبية والفرائض ، وشرح السورة المجهولة في القرآن وهي سورة « النورين » التي لاوجود لها إلا في نسخة الشيعة سنة ١٨٤٥ م .

وأما الفلسفة الاسلامية ، فقد كانت ، لعدة أسباب ، منزلاً من المنازل الاقل تنقيباً عنه ، فدراسة «رينان» عن ابن رشد والرشديين ظلت منعزلة ، وهو القائل : « لولا ابن رشد لما فهمت فلسفةأرسطو ،وله تاريخ اللغات السامية ، وعلاقة النحوالعربي بمنطق أرسطو .

والذين عنوا بالفلسفة الاسلامية منهم ، «مونك» الذي درس الفارابي والغزالي وابن رشد ، وابن سينا والكندي، ونشر مختارات في الفلسفة العربية و « ليون جوتيه » نشر « حي بن يقظان » متناً وترجمة ، وكتاب « فصل المقال » و « تهافت الفلاسفة » .

ولعل البارون « كارادي فو » كان اكثرهم التفاتاً الى عالم الفلسفة ، فقد صنف في فلاسفة العرب ، « الغزالي وابن سينا والإشراق » وألف كتابه المشهور « مفكرو الاسلام » في خمسة أجزاء ، وترجم قصيدة ابن سينا التي مطلعها :

هبطت اليك من المحل الأرفع
ورقاءُ ذاتُ تدلـّل وتمنـّع

كما ترجم « تائية الفارض » الكبرى .

* * *

وأما جابرييل كولين فقد اختص بدراسة « ابن سينا » وأعماله .

على أن هذا العالم الاسلامي – والعربي – بخاصة قد أوحى بالكثير للكتاب الفرنسيين الذين وصفوا الطبيعة ، وصوروا الناس ، ولا سيما في الشمال الافريقي بحكم اتصالهم السياسي به .

وهذه الكتب التي وضعها أمثال «فورمنتان ودوماس وغيرهما » تعد مراجع قيمة في دراسة المجتمع العربي ، على أن الأولى هو الرجوع الى الآثار العلمية .

وهذا « جوسّان » كتب كتباً مفيدة عن « المجتمع السوري » و « العرب في بلاد المغرب » و « الفقراء » و « نابلس » .

و « بونجان ودياف » أخرجا دراسة اجتماعية روائية في قصة « محمود » صورا بها الحياة الحضرية المصرية .

وكان لدراسة الفولكلور العربي أهمية خاصة عند بعض المستشرقين .

وفي عالم الموسيقى أعطى « فيلولوتون » أول مبحث في « الموسيقى العربية » .

* * *

وقد كان لهؤلاء المستشرقين منازع مختلفة عليها التعصب للعرب أو التعصب على العرب بحكم الهوى ؛ ومن العجب أن يأخذ بعض علمائنا بهذه النظرة لمجرد أنها غربية ، والغربية عندهم مقدسة .

من ذلك أنهم حملوا على المستشرق « سديو » — الذي أعطى خلاصة تاريخ العرب ، واتهموه بالاغراق في تفضيل فضل العرب على الحضارة الأوروبية — وهذا الكتاب ترجمه الاستاذ عادل زعيتر ترجمة كاملة — .

وكانوا اكثر حنقاً على « جوستاف لوبون » الذي هام بحب العرب ، واعتبر هزيمتهم في بلاط الشهداء هزيمة الحضارة . في كتابه المشهور « حضارة العرب » الذي ترجمه عادل زعيتر نفسه . ولوبون هوصاحب هذه الجملة الخالدة « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب » .

ولو أن « لوبون » سلك غير هذا المسلك ، وتبنى حملة حاقدة على العرب لجعلوه امام المستشرقين ، ولكن الهوى يعمي ويصم !

* * *

والجولة الاخيرة للكتاب العربي تمتد الى ما اعطاه المستشرقون المحدثون ، وفيهم الأحياء الذين لايزالون يواصلون الدراسة .

من هؤلاء المستشرق المعاصر السيد « بلاشير » الذي يعيش الآن مكفوفاً في باريس ، وله آثار ضخمة في عالم الاستشراق ، منها كتابه في الأدب العربي ، وقد عرب الدكتور ابراهيم الكيلاني « الجزء الاول » منه ونشره . ومنها كتابه الذي احدث ضجة كبرى في الشعر العربي حول « المتنبي » بالطريقة التي اتبعها في تصوير مراحل حياته من خلال تسلسل شعره ، وهي الطريقة التي اتبعها بعده الدكتور طه حسين في كتابه « مع المتنبي » .

وله بعد ذلك ترجمة جديدة للقرآن في ثلاثة أجزاء اشتهرت بتفهم النص العربي بتعمق ، وبحسن التعبير والبيان . وقد قامت عليه قيامة المتعصبين من قومه لأنه أغفل إسناد القرآن الى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، باعتباره المؤلف له كما يزعمون ؛ فكان جوابه جواب العالم النبيل ! « اني اخرجت القرآن ، كما ورد في النص العربي ، ولم أجده مسنداً الى محمد ، وانما العرب والمسلمون يعتقدون بأنه كلام الله المنزل عليه » .

لكنه ، من جهة ثانية ، وقع في خطأ جسيم ، حين زاد على سورة النجم » مازعم أنه جاء في التنزيل . وهو : « تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى » اشارة الى ان شفاعة هؤلاء الأصنام ، واردة في القرآن ،

ولا ندري كيف سوغ بلاشير لنفسه الاخذ بما وضعته بعض المصادر المشبوهة ، لغاية خبيثة ، وكيف يجيز شفاعة الاصنام ، وهو الذي كان من عمله الأول تحطيمها والقضاء على الوثنية ؟

وهنالك المستشرق الذي يعد إمام المستشرقين « ماسينيون » بكثرة نشاطه ، وغزارة مادته ، وقد انصرف اهتمامه الى دراسة « التصوف الاسلامي » في كتابه : ـ أصالة التصوف في الاسلام ـ ومنه انطلق الى دراسة الصوفي « الحلاج » منقباً آثاره ، جامعاً لأخباره ، ناشراً لديوانه . حتى جعل موضوع رسالة الدكتوراه « آلام الحجاج : شهيد التصوف في الاسلام » .

وهنالك المستشرق « لاووست » الذي عاش في سورية ـ بصورة خاصة ـ زمناً طويلا ، وقد شغل ادارة المعهد الفرنسي للدراسات الاسلامية بدمشق ، وقد عكف على دراسة « ابن تيمية » علامة دمشق في عهد التتار ، واخرج بعض مؤلفاته القيمة بالعربية وقدم لها ، وترجمها ، وشرح « آراء في مذهب ابن تيمية » . كما ترجم « العمدة » لابن قدامة ترجمة دقيقة ، معززاً كل لفظة بلفظها العربي مكتوباً بالحرف اللاتيني .

وهنالك « ديومبين » الذي كان من آثاره كتاب « قواعد العربية الفصحى » سنة ١٩٣٧ م وهو من أجود كتب النحو ، و « محمد : الرجل ورسالته » سنة ١٩٥٧م

ولعل أبرز أعماله نشره لمقدمة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، مصحوباً بترجمة وافية ، وقد مهد لهذه المقدمة بمقدمة رائعة تناول فيها الشعر العربي ، وأتى على جميع مراحله ، واشكاله وفنونه ، بالاضافة الى تعليقات دقيقة في آخر النص . ولعل من المفيد أن نراها يوماً منقولة الى العربية .

والمستشرق « شارل بيلات » نشر كتاب التربيع والتدوير للجاحظ ، كما ألف كتابه الرائع : « الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء » ويعد مرجعاً هاماً لمن يدرسون الجاحظ . وقد ترجمه الدكتور ابراهيم الكيلاني .

ومن هؤلاء المستشرقين « ديو » وهو عالم بالآثار ، كشف عن أقدم كتابة بالخط العربي ، وساعد على كشف الكتابات السبئية الحميرية قبل الاسلام ، وله مجلة « سيريا » ذات المقالات المستفيضة عن « عرب سورية قبل الاسلام » وعن « اكتشافات رأس شمرة والعهد القديم » .

و « ساريج » الذي كتب عن الديانات التي سبقت الاسلام في الجزيرة العربية .

و « سوفاجي » الذي درس الآثار العربية ـ ولا سيما في سورية ـ وله في مدينة حلب دراسة عن تاريخ المدينة ، حتى أواسط القرن التاسع عشر ، وهي رسالة في الدكتوراه ، ويعمل الآن الاستاذ فريد جحا على ترجمتها .

وله كتاب العمارة الاسلامية في سورية ، و « مختارات من بغية الطلب لابن العديم » وكأنه بهذا ابن من أبناء حلب .

و « ليون برشه » الذي أكثر الطواف حول « الغزالي » وترجم كتاب « الاسلام » وأصول الحكم » لعلي عبد الرازق .

و « مونتابل » الذي جمع « مختارات من الأدب العربي المعاصر » سنة ١٩٦١على أن فضل هؤلاء المستشرقين على العرب – بالاضافة الى عنايتهم بآثارنا القديمة واستحيائها بعد نفض الغبار عنها، ودراستها دراسة حديثة ، وترجمتها ترجمة قويمة – يكمن في تنظيم الكتاب العربي ، وترتيب فصوله ، والتعليق عليه ، وضبط نصوصه، ثم تذييله بفهارس تتناول المواضيع والأعلام ، والأماكن ، والقوافي ، مما لم يكن له مثيل في تاريخ النشر العربي .

وأما الترجمة ، فهي – مع حرص المترجمين على أمانة النص – لم تخلُ من أخطاء تخِلُّ بالمعاني أحياناً ، وذلك يعود الى أن معرفتهم باللغة كانت تخونهم في الوصول الى تفهم عبقرية العربية ، والتواءاتها اللغوية والمجازية .

من ذلك – وهو مما تبقى في ذهني – أن المستشرق « ديومبين » أراد أن يترجم هذين البيتين لحميد بن ثور :

أرى بصري قد رابني بعد صحة
وحسبك داء أن تصح وتسلما
ولا يلبث العصران : يوم وليلة
اذا طلبا ، أن يدركا ما تيمما

فترجمها بما معناه:«أرى عيني يخطئانني بعد ما كانتا صافيتين » ان هذا يكفيك أن تبقى سليماً وشاذاً . ان اجزاء الزمان ، الليل والنهار ، لا يلبثان في طراد ، دون أن يدركا غايتها » .

وأين ترجمة البيت الاخير من الأصل الذي يريد أن الليل والنهار لا بد أن يدركا غايتها ما داما يجريان .

ويبدو أن مثل هذه الاخطاء كانت تتكرر في ترجماتهم : والاولى بهم أن يتعاونوا مع أساتذة عرب ، لتقريب روح النص من أفهامهم .

واليوم ، كثر المستشرقون في عصرنا الحديث ، الذين يهمهم الاطلاع على ما تجود به قرائح العرب ، دون النظر الى الغاية السياسية ، ولكنهم جعلوا اكثر وكدهم نقل الأدب المعاصر الى لغاتهم ، شأنهم في ذلك شأن أدبائنا الذين يترجمون الآثار الغربية الى العربية ، لإغناء أدبنا بأدبهم الذي لا يزال اكثر فتوناً واتصالاً بالحياة ، وأبعد مجالاً .

* * *

وهكذا نجد أن الاستشراق الفرنسي أدى خدمة جليلة للكتاب العربي الذي لقي فيه مراداً واسعاً لرحلته الكبرى؛ سواء ذلك في المكتبات الكبرى، والكليات الشرقية، او في المدن العربية ذاتها التي أنشئت فيها معاهد للدراسة، كالجزائر، والمغرب، وتونس، والقاهرة، ودمشق.

وللاستشراق الفرنسي دور مرموق على صفحات «الموسوعة الاسلامية» وصفحات المجلات الكثيرة التي انفردت بالدراسات الاسلامية والعربية، ومن هذه المجلات:

صحيفة العلماء، والمجلة الآسيوية، والمجلة الأفريقية، ونشرة معهد مصر، والمجلة التونسية، ونشرة المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة، ومجلة «سيريا»، ومجلة الدراسات الاسلامية، ومجلة معهد الآداب العربية في تونس، ومجلة «العربية» مشتملة على اللغة والأدب والتاريخ والحضارة في العالم العربي، درساً ووثائق ونقداً، وأثر الثقافة العربية في الثقافة الفرنسية، وعلى نصوص عربية وخطيات، وهي أغنى المجلات. ثم منشورات مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، والمعهد الفرنسي بدمشق، ومعهد الدراسات المغربية في الرباط.

ويبدو أن هذه الدراسات قد فارنشاطها في فرنسة، بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، ففي باريس احتلت لها مكاناً مرموقاً في معهد اللغات الشرقية الحية، وفي كلية فرنسة، ومعهد الدراسات العليا، وفي كلية الآداب، ومنذ سنة ١٩٥٧ أدخلت فرنسة على برامجها في التعليم الثانوي، مواد جديدة عن الحضارات الكبرى وتطور الشرق التاريخي، فكان للعرب والاسلام منها حظ وفير. وبعض هذه الكليات فتحت ابوابها للعرب أنفسهم.

على أن معاهد فرنسية عديدة أنشئت لهذا الغرض، على أرض غير فرنسية، في أقطار مختلفة، في استانبول، والجزائر، وتلمسان، وتونس، وقد أسهم معهد الدراسات الفرنسي بدمشق، بنصيب وافر في نشر الدراسات العربية.

وفي كل مكان، نجد الجهود المبذولة تمتد الى أن تضع العاملين، في هذا الحقل، أمام اكتشاف الحقيقة، وأن نجمع تحت عيون الدارسين، تعاليم الحياة مع تعاليم الكتب على خط واحد.

هذه دراسة وجيزة جئت بها على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر والإحاطة بكل

ما جاء في هـذا المجال ، لأن رحلة الكتاب العربي – في عالم الاستشراق – طويـلة وطويلة ، وهي أبعد منالاً من أن يفي بحقها عدة صفحات ضئيلة .

ولي اقتراح أود أن يحفل به الجامعيون، في رحاب الجامعة ، هو أن يعملوا على انشاء كرسي خاص بدراسة علم الاستشراق، بمحاسنه ومساوئه ، وآثاره ، وطرائقه ، وما له وما عليه ، لأننا في حاجة الى أن نعرف آثارنا ، لا كما نراها ، بل كما يراها الآخرون . فهل نحن فاعلون ؟

ان آثارنا مفخرة لنا ، فهـل نهجرها الى غيرنا . دون أن تكون لنا يد في إحيائها ، ونفض غبار الاهمال عنها ؟